جهود الشيخ حسين المرصفي في بعث النقد والأدب العربيين*

Efforts of Sheikh Hussein Al-Marsafi in reviving Arab criticism and literature.

إسماعيل المركعي

الأكاديمية الجهوية لمهن التربية والتكوين لجهة الشرق (المغرب)

ismail.elmarkaiz@gmail.com

ملخص

يبرز هذا المقال مجهودات الشيخ حسين المرصفي في إحياء النقد الأدبي خاصة في كتابه الموسوم بـ"الوسيلة الأدبية"، والتي ضمت سرد قواعد العلوم المألوفة من النحو والصرف والبلاغة... إلخ، وغير المألوفة من فنون الكتابة والإنشاء وغيرها. وقد أثار المرصفي فيها الكثير من القضايا الأدبية والنقدية. وذلك عبر الوقوف عند حديثه عن علوم البلاغة العربية الثلاثة (البيان، المعاني، البديع) وما عرفته من تفريعات وتقسيمات، ودورها في الانتاجات الأدبية والنقدية. وعند بعض المفاهيم النقدية التي استقاها المرصفي من كتب النقاد القدامى، كمفهوم الأدب والنقد والشعر والإشارة إلى أهم الأسس النقدية عنده.

الكلمات المفاتيح: الجهود، الإحياء، النقد.

Abstract

This article highlights Sheikh Hussein Al-Marsafy's efforts to revive literary criticism, especially in his book entitled "The Literary Instrument", which includes a narration of the rules of familiar sciences such as grammar, morphology, rhetoric... etc., and the unknown arts of writing, composition and others. Al-Marsafi has raised many issues in literature and criticism by discussing Arabic rhetoric and its three aspects (statement, semantics, creative) as well as its ramifications and divisions, and its role in

*

تاريخ استلام البحث: 2022/11/24	تاريخ قبول البحث: 2023 /04/22	تاريخ النشر: 2023/05/15

literary and critical productions. Al-Marsafi also discusses critical concepts that he has drawn from the books of ancient critics, such as the concept of literature, criticism and poetry, highlighting the foundations of criticism that he considers most important.

Keywords: Efforts, revival, criticism.

مقدمة

كانت فكرة إحياء الماضي تراود الكثير من الأدباء، وسلموا بضرورة العودة إلى التراث واستعادة أساليبه في التفكير والتعبير التي فقدتها مرحلة النهضة. فقد ألح كبار مفكري القرن التاسع عشر في العالم العربي على اعتبار التراث عاملا أساسيا في تجديد النقد الأدبي، ومن ثمة فإن العودة إلى الماضي وبعث تراثه واستلهام قيمه وأسسه، يعدّ مصدرا هاما في القضاء على ما عرفه الأدب من جمود وتدهور، وركاكة خلال مرحلة عصر الانحطاط، ورد الاعتبار للأدب القديم، سواء تعلق الأمر بالشعر أو النثر. ومن هؤلاء النقاد، نجد الشيخ حسين المرصفي.

يعتبر الشيخ حسين المرصفي من بين النقاد الذين حاولوا الرجوع إلى التراث، وذلك بالالتفات إلى النقد العربي القديم الذي كان سائدا في عصر الازدهار، ليخلق بذلك صلة وصل بين الدراسات القديمة والحديثة، وذلك بمحاولة تذكير وتعريف القارئ العربي بهويته الأدبية والنقدية عبر إحياء وبعث طرائق النقد والأدب العربيين، والكشف عما يزخر به التراث العربي من كنوز وروائع. فما هي تجليات هذا البعث والإحياء عند الشيخ المرصفي في كتابه الموسوم بالوسيلة الأدبية؟

وانطلاقا من هذه الإشكالية، نسعى في هذه الورقة إلى إبراز مجهودات الشيخ حسين المرصفي في إحياء النقد الأدبي خاصة في كتابه الموسوم بـ "الوسيلة الأدبية"، والتي ضمت سرد قواعد العلوم المألوفة من النحو والصرف والبلاغة...إلخ، وغير المألوفة من فنون الكتابة والإنشاء وغيرها. وقد أثار المرصفي فيها الكثير من القضايا الأدبية والنقدية. وسنعمد في ذلك الوقوف عند حديثه عن علوم البلاغة العربية الثلاثة (البيان، المعاني، البديع) وما عرفته من تفريعات وتقسيمات، ودورها في

الإنتاجات الأدبية والنقدية. ثم الكشف عن بعض المفاهيم النقدية التي استقاها المرصفي من كتب النقاد القدامى، كمفهوم الأدب والنقد والشعر، والإشارة إلى أهم الأسس النقدية عنده.

أولا: جهود المرصفي في التذكير بالهوية النقدية العربية

عرف العالم العربي خلال عصر النهضة نظما فكرية جديدة، وطرقا حديثة في الحياة على وجه العموم والحياة الفكرية على وجه الخصوص، حيث ظهرت مجموعة من الفنون الشعرية والنثرية التي لم يكن للعرب عهد سابق بها أمثال الرواية والمسرحية وغيرها. وقد (أدت هذه الحركة الأدبية الفاعلة إلى ثراء النقد الحديث في البلاد العربية، وأصبحت النظرية النقدية لا تدور حول الشعر وحده، لكنها طالت أيضا مجال النثر)[1].

انحصر النقد في مرحلة النهضة في الأدب العربي الحديث في ثلاثة مصادر أساسية: يتعلق الأول بمقدمات دواوين الشعر التي بثت فيها حل آرائهم النقدية، وتصوراتهم لمختلف القضايا الشعرية التي كانت سائدة في تلك الفترة، ويتمثل الثاني في كتابات النقاد والعلماء الذين اهتموا بتدريس البلاغة والأدب في المدارس والجامعات، أما الثالث فيتعلق بالمجلات والدوريات الأدبية والثقافية التي كانت تصدر في تلك المرحلة وتحمل في ثناياها مواقف ورؤى أصحابها.

وقد حاول النقاد والعلماء أن يسهموا في إرساء قواعد واضحة للحركة النقدية في العصر الحديث، من خلال دروسهم الأكاديمية التي كانوا يقدمونها في الجامعات والمعاهد، والتي سعوا من خلالها إلى إعادة بعث علوم اللغة، والبلاغة، والأدب في الصورة المثلى التي عرفتها في العصور الذهبية، لا سيما في العهد العباسي. كما اجتهدوا في معالجة ومقاربة النصوص الشعرية والأدبية بشكل مغاير لما كان سائدا، وخلف بعضهم تراثا نقديا مهمّا، كمجهودات الشيخ حسين المرصفي وتلاميذه، الذين حاولوا بعث النقد العربي القديم في حلة جديدة؛ إذ يعتبر المرصفي من النقاد الذين حاولوا خلق صلة وصل بين الدراسات القديمة والحديثة، حيث التفت إلى النقد العربي القديم وما عرفه من تطور وازدهار، فأحياه عبر بعث طرائقه وكشف عن كنوزه وروائعه.

1- جهود المرصفي في علوم البلاغة العربية

يقول المرصفي: (ولما اتسعت دائرة القول في العلوم الفلسفية بين المسلمين حتى أفضى بهم التكلم في تخليص العقائد الإسلامية، وإزاحة الشبه عنها إلى كشف حقيقة النبوّة وبيان وجهة إعجاز

القرآن، رأى الناس نفع هذه الفنون في معرفة إعجاز القرآن الذي هو برهان العربية الحق بقضاء من العلوم الدينية واشتغل بها طائفة من الناس وأكثروا فيها من التأليف)[2].

إن الغاية التي دعت المرصفي لإحياء البلاغة العربية ومعرفتها، هي الغاية الدينية القائمة على إثبات إعجاز القرآن، وقد نهج في ذلك منهج النقاد القدامى، أمثال (ابن قتيبة) الذي أولى عناية كبيرة بالبلاغة، وخاصة في كتابه الموسوم بـ(تأويل مشكل القرآن الكريم)، وهو رد قاطع منه على كل الطاعنين في بلاغة القرآن والمتّبعين لما تشابه منه، والمبتغين للفتنة. كما أنه سار أيضا على منوال أبي هلال العسكري الذي يرى أن لعلوم البلاغة أهمية كبرى، جديرة بالدراسة والتعليم، وهو الأمر المصرح به في مقدمة كتابه (الصناعتين)؛ إذ يقول: (إن أحق العلوم بالتعليم وأولاها بالتحفظ، بعد المعرفة بالله جل ثناؤه، علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى)[3].

يرى المرصفي أن معرفة قدر القرآن وقيمته وما يتضمنه من معان عميقة، تستوجب معرفة حقة بعلوم البلاغة وما تحويها من أسرار، إذ يقول: "(ومن أراد أن يقدر كلام الله حق قدره ويعرف مقاصد البلغاء المعدودين لزِمه ألاّ ينصرف بالنظرة الحمقاء بل يكرر الفكر مرة بعد مرة ووقتا بعد وقت حتى يقف على أسرار البلاغة)[4].

هكذا، جعل المرصفي العناية بالبلاغة العربية أمرا آكادا ومدخلا مهما لفهم كتاب الله تعالى والكشف عن مكنونه وأسرار إعجازه، سيرا على نهج السلف من البلاغيين الذي أشاروا إلى هذه القضية، ولذلك خصص المرصفي حديثه عن كل فنون أو علم من علوم البلاغة الثلاثة.

أ- علم البيان

حظي علم البيان لدى المرصفي بحيز من الدراسة والتحليل، حيث نجده يتحدث عن الاستعارة والمجاز، والتشبيه والكناية، وخصص لها تعريفات لغوية، ووضع لكل باب أمثلة؛ كما هو الحال عند العسكري والجرجاني، لكن عمله لم يكن مقصورا على رصد ما ذهب إليه سابقوه، بل نجده في بعض الحالات يعبر عن رأيه، حيث ينتقد معاصريه وسابقيه معا في طريقة دراستهم للبلاغة وفهمهم لمقصدها، من ذلك قوله عن الآية: (وقال الله تعالى ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾ الختم والطبع يدل على تشبيه القلوب بصناديق مغلا، ففي الكلام استعارة

مكنية وقرينتها لفظ ختم فيفيد الكلام أن أولئك بمنزلة الجمادات بحيث إنها لو كان فيها شيء لم تكن منتفعة به، وقد جعلت بحيث لا يمكن أن يدخل فيها شيء فلا يطمع طامع في إيمانهم...)[5].

يكشف لنا المثال السابق رأي المرصفي ونقده طريقة فهم البلاغة ودراستها، حيث لا ينبغي لدارسي البلاغة الاقتصار على قولهم كذا يشبه كذا، وإنما يجب على الناقد أن يقف القارئ على مواطن الحسن في العبارة.

يرى الناقد أيضا في استعمالات التشبيه -على الرغم من توفر وتحقق جميع أركانه وأقسامه في كلام ما- أنه لا يمكن تصنيفه في دائرة الكلام البليغ، فليس (كل ما في الكاف أو كأن يعد في نظر أهل صناعة الكلام العارفين بها، الواقفين على أسرارها الملتفتين إلى دقائقها تشبيها، وإنما ما جلت فائدته وحسن موقعه من غرضه)[6]، ويرى أن (أحسن التشبيه والاستعارة ما وقع موقعه من غرض تصوير حال المشبه أو المستعار له، والإبانة عنها بجزيل العبارة ولطيف السياق، بحيث لا يكون قصد المتكلم إلى مجرد التشبيه والاستعارة كما هو كثير في كلام المولدين)[7].

ينتقد المرصفي من خلال هذا القول رأي بعض المولدين الذين اتخذوا من التشبيه والاستعارة هدفا رئيسيا في أقوالهم وأشعارهم، مما ساهم في فساد شعرهم وكلامهم؛ الذي أصبح لا يحمل ذلك الذوق الذي يجعل القارئ يتأثر بمضمون الكلام وينتفع به. فالمرصفي بهذا يوجه رسالة إلى هؤلاء مفادها: (إمعان النظر في كلام الله جل ذكره، وفي كلام من يرد عليك بعض كلامه من شعراء العرب، ومن حذا حذوهم واقتفى أثرهم من المولدين؛ ليكون ذلك لك بمنزلة المحك تعرف به الزيوف من الصحاح الخلاص)[8].

ويعطي أمثلة كثيرة في هذا السياق، منها قوله:

(فمن جيد كلام المولدين، مثل قول أبي طاهر البغدادي:

خطرت تكادُ الورق تسجع فَوْقها إن الحمامَ لمولعٌ بالبانِ

من معشر نشِروا على هامِ الربي للطارِقينَ دوائبُ النيرانِ

وهو مأخوذ من قول العربي:

يَبيتونَ في المشْتى خماصا وعندَهمْ مِنَ الزّادِ فضلات تعد لمن يقرى

إذا ضلَّ عنهم طارقٌ رَفَعوا لهُ مِنَ النّارِ في الظّلْماءِ ألوية حمرا)[9]

كما يركز المرصفي على الأثر الذي يخلفه التشبيه أو الاستعارة في نفوس القراء، وعلى موقعه في النفس ودرجة تأثرها به، وهو بذلك يقصي غرض التشبيه والاستعارة من دائرة إيرادهما لمجرد التشبيه أو الاستعارة فقط. ويورد في هذا السياق أبياتا في الرثاء للشاعر مسلم بن الوليد الأنصاري يقول فيها:

سلكتْ بكَ العَربُ السبيلَ إلى العُلا حتى إذا سبقَ الردى بكَ حاروا
نفضتْ بكَ الآمالُ أحْلاسَ الغِنى واسترجَعتْ نزّاعها الأمصارُ
فاذهبْ كما ذهبتْ غوادي مزنة أثنى عليها السّهلُ والأوعارُ[10]

فالمرصفي يقف موقف الدفاع عن هذه الأبيات ومدحها على غرار النقاد القدماء، فهو يرى أنها في أرفع طبقة وصل إليها الشاعر، وحاول أن يدلّل على ذلك من خلال بيان ما حوته من صور التفجع والتأسف ما لا يبلغه قول أي مشكور بكل مكان محمودا بكل لسان[11].

ب ـ علم المعاني

قسم حسين المرصفي علم المعاني إلى ثلاثة أبواب باعتباره يتناول مسائل تتعلق (بالجملة وأجزائها ومنها ما يتعلق بالجملتين فأكثر، ومنها ما هو مشترك ناسب)[12]. الملاحظ من خلال حديثه عن باب الجملة وأجزائها أنه حذا حذو البلاغي عبد القاهر الجرجاني ولا سيما من حيث الذكر والحذف والتقديم، الذي اتخذ من هذه الدروب طريقه إلى نهاية نظرية النظم عنده، يقول: (واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها)[13]. وهذا دليل واضح على اتباع أثر البلاغيين، ومحاولة إحياء نظرياتهم وتصوراتهم العميقة في هذه الفنون البلاغية، إذ حاول إظهار البلاغة وإعادة الاعتبار لها، وما امتازت به أصلا من فخامة اللفظ، ودقة المعنى، وحلاوة الصياغة، وجمالية الصورة، وقوة الخيال، موظفا في ذلك ذوقه وحسه وثقافته الأصيلة.

ج ـ علم البديع

أدرج المرصفي علم البديع في مرتبة ثالثة بعد علمي البيان والمعاني، وأن أهميته تكمن في العمل به بعد العلمين السابقين، يقول: (اعلم أن العمل بهذا الفن إنما هو بعد العمل بسابقيه، كما أن العمل

بفن البيان بعد العمل بفن المعاني، وبيان ذلك أنك تنظر إلى المعنى الذي تريد أن تعبر عنه، وأين تضع العبارة، فحافظك إذا من الخطأ في تعيين العبارة حسب الموضع هو فن المعاني، ثم إنك تنظر إلى الألفاظ فتختار منها ما تعرف أنه يبين مرادك ويجلو صورة المعنى الذي شخصته أولا للبصائر كما تجلو المرأة الصقيلة صورة ما يقابلها، وحافظك إذا من الخطأ فن البيان، ثم إذا أردت أن تزيد عبارتك حتى تكون بهيجة مفرحة كالصورة المنقوشة بنقوش محكمة متناسبة بعد أن أخذت الأعضاء متانتها وكما لها كما يليق بنوعها جاء العمل بهذا العلم وليكن على ذكرك تمثيل الكلام الذي تريد إنشاءه بالبيت الذي تريد أن تسكنه من أول ما تريد أن تبنيه) [14].

يكشف المرصفي من خلال هذا النص مبدأ التراتبية في علم البلاغة العربية، ويصنف بذلك علم المعاني في المرتبة الأولى للعمل، إذ يصبح المبدع أمام خيار النظر إلى المعنى الذي يعبر عنه، وإلى موضع العبارة التي يريد توظيفها. ثم علم البيان في المرتبة الثانية للعمل، حيث يكون المبدع أمام خيار انتقاء الألفاظ المناسبة لما يريد التعبير عنه. وأخيرا علم البديع في المرتبة الأخيرة للعمل، حيث يكون المبدع أمام خيار التزيين والجمال إذا أراد أن يضفي على العبارة شيئا من البهجة والفرحة.

والواقع أن المرصفي خلال حديثه عن علم البديع كان متشبثا بما أثاره ابن المعتز في هذا العلم، ومن جاءوا بعده ولا سيما ابن أبي الأصبع المصري المتوفى سنة 652هـ، والذي يعد من أشهر المؤلفين في البديع. وهذا التأثر من قبل المرصفي ما هو إلا التفات إلى ما كتبه القدامى في علم البلاغة، وما أثاروه من تفاصيل وفروع في كل علم على حدة، بغية إعادة إحيائه من جديد، والتشبث به واعتماده في إنتاجات الأدباء في عصره. على الرغم من بعض الملاحظات التي سجلها المرصفي على بعض المتأخرين أثناء قراءته لهذا العلم، حيث التفت إلى أمور لها دلالتها من حيث الإكثار من فنون البديع والخلط بينها وبين المعاني والبيان، يقول: (وقد أفرد المتأخرون هذا الفن بالتأليف وأدخلوا فيه كثيرا من مباحث الفنين كأنهم رأوا كفايته لمعرفة من أين يتميز كلام عن كلام، وتشرف عبارة عن عبارة، وفصلوه إلى أنواع يزيد المتأخر فيها على المتقدم حتى بلغت عددا كبيرا) [15].

وما يبرز جهود المرصفي في إحياء علوم البلاغة العربية هو تلك العودة إلى ما أنتجه البلاغيون القدامى أمثال الجرجاني وابن المعتز وابن أبي الأصبع المصري وغيرهم من الأدباء الذين فصلوا في

حال هذه العلوم. فقد حاول المرصفي السير على منوالهم وسعى جاهدا إلى جمع ما قيل في علوم البلاغة خاصة علم البديع منها بكل تقسيماته، لدرجة الاتفاق على مذهبهم في تقسيمها إلى لفظية ومعنوية، فلم (يزل المشتغلون بمعرفة المحاسن الكلامية يعتبرون على أمور إذا قيست لما ذكره أهل هذا الفن كانت مستحقة لنظمها في سلكه وتسميتها بما يناسبها هذا والأحوال المبحوثة عنها في هذا الفن تنقسم إلى لفظية وإلى معنوية، اللفظي منها ما يعود حسنه على الألفاظ كالجناس والطباق، والمعنوي ما يتعلق بالمعنى كالمبالغة والغلو وها هي تلك أنواع البديع على ترتيب التأليف المستقلة) [16].

عمل المرصفي أثناء حديثه عن النقد على تقسيم النقاد إلى صنفين: الأول هم الشعراء والكتّاب ورواة المنظوم والمنثور. والثاني هم المتكلمون في إعجاز القرآن، وسنقف عند الصنف الثاني لنبرز موقف المرصفي منه ووجهة نظره فيهم، يقول عنهم: (هم أولئك الذين تكلموا في إعجاز القرآن من جهة البلاغة، ووضعوا لذلك مصنفات في ذلك الصدد، وهؤلاء قرنوا بين كلام الله الذي لا تخفى عليه خافية، وبين كلام الناس الذين هم في موضع السهو والنسيان، ومن ثم فلابد أن يبالغوا في البحث والتفتيش وألا يتغاضوا عن شيء يمكن أن يؤثر في سلامة الكلام وبراءته من المطاعن) [17].

والظاهر من خلال كلام المرصفي هذا، رفضه التام لهذا الصنف من النقاد، لما يرى فيه من حاجة الناقد إلى تكلف وجهد كبير، للقيام بالمقارنة بين نوعين مختلفين من الكلام (كلام الله ـ كلام الناس) لإثبات سمو أحدهما على الآخر. لأنه يرى من غير المقبول أن تعقد مقارنة بين كلام منزّه خال من الخطأ وكلام آخر هو في موضع الشك والوقوع في دائرة الخطأ، وهذا ما جعله يرفض رفضا تاما لدرجة الانتقاد بكل صرامة، (لأنهم قرنوا بين الكلام البريء من كل عيب حلّ أو دقّ، ظهر أو خفي، وهو كلام من لا يخفى عليه خافية. وبين كلام الناس الذين هم موضع السهو والنسيان) [18].

نخلص مما سبق، إلى أن الشيخ المرصفي عمل على بعث علوم البلاغة العربية، وما شهدتها من تفريعات وتقسيمات، وسعى جاهدا إلى تبيان دور البلاغة في الإنتاجات الأدبية والنقدية، فلم يفصل بينها وبين الأدب والنقد، وذلك بإحياء كتب القدامى، خاصة ما أنتجه الشيخ عبد القاهر

الجرجاني. كما عمل أيضا على بعث طرائق النقد الأدبي القديم من خلال كتابه (الوسيلة الأدبية) متبعا في ذلك طريق النقاد الآخرين.

ولعل السبب في هذا البعث يعود إلى الغيرة في الدفاع عن الموروث العربي الغني بالمعارف والإنتاجات التي تزخر بالبلاغة والتي تنسجم مع هوية الإنسان العربي وثقافته وتاريخه. وإلى الرغبة في توجيه النهضة الأدبية توجيها صحيحا يخدم مصلحة الثقافة العربية، وسلوك الإنسان العربي بشكله العام.

2- جهود المرصفي في النقد

عرف العالم العربي خلال عصر النهضة نظما فكرية جديدة، وطرقا حديثة في الحياة على وجه العموم، والحياة الفكرية على وجه الخصوص؛ إذ ظهرت مجموعة من الفنون الشعرية والنثرية التي لم يكن للعرب عهد سابق بها كالرواية، والمقالة، والمسرحية وغيرها. مما (أدت هذه الحركة الأدبية الفاعلة إلى ثراء النقد الحديث في البلاد العربية، وأصبحت النظرية النقدية لا تدور حول الشعر وحده، لكنها طالت أيضا مجال النثر)[19].

ويمكن أن نحصر النقد الأدبي العربي الحديث خلال مرحلة النهضة في ثلاثة مصادر أساسية، نبينها في الجدول الآتي:

المصدر الأول	المصدر الثاني	المصدر الثالث
مقدمات دواوين الشعر التي بثت فيها جل آرائهم النقدية وتصوراتهم لمختلف القضايا الشعرية التي كانت سائدة في تلك الفترة.	كتابات النقاد والعلماء الذين اهتموا بتدريس البلاغة والأدب في المدارس والجامعات	المجلات والدوريات الأدبية والثقافية التي كانت تصدر في تلك المرحلة وتحمل في ثناياها مواقف ورؤى أصحابها.

أدّت الدروس الأكاديمية التي كانت تقدم من داخل المعاهد والجامعات دورا رئيسا في إرساء قواعد واضحة للحركة النقدية خلال العصر الحديث؛ إذ عمد الأساتذة عبرها بعث علوم اللغة والبلاغة والأدب في صورتها المثلى التي عرفت بها خاصة في العصر العباسي، كما اجتهد هؤلاء في مقاربة النصوص الإبداعية خاصة الشعرية منها بطريقة مغايرة للطريقة التقليدية، وخلف بعضهم إرثا

نقديا مهما كالشيخ حسين المرصفي ومن سلك منهجه من تلامذته، الذين حاولوا بعث طرائق النقد العربي القديم في ثوب جديد.

رفض المرصفي التعريف العروضي التقليدي الذي يعتبر الشعر هو ذلك الكلام الموزون المقفى، وتبنى حدا آخر للشعر ليس محاكيا للتراث فحسب، لكن يبدو فيه متأثرا بتعريف بن خلدون، حيث يتحكم فيه الأسلوب المنطقي، يقول: (الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل من كل جزء منها في عرضه ومقصده، عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرض المخصوصة)[20]. وهذا التعريف قائم على أساس الفصل والجنس، وقد خالفه فيه المرصفي في قضية الأساليب الشعرية؛ حيث يرى أن شعراء العرب لم يتفقوا على سلك مذهب بعينه في الشعر.

كما ناقش المرصفي رأي ابن خلدون في الذوق، وهو الرأي القائل بأن: "(الذوق هو حصول ملكة البلاغة للسان)[21]. وهو ما عارضه بقوله: (الإدراك الذي يتعلق بتناسب الأشياء، ويوجب الاستحسان والاستنتاج هو المسمى بالذوق وهو طبيعي ينمو ويتربى بالنظر في الأشياء والأعمال من جهة موافقتها للغاية المقصودة منها)[22].

بالإضافة إلى هذا، فقد عقد الشيخ المرصفي موازنات بين الشاعر محمود سامي البارودي وفحول الشعراء الذين عارضهم، وقد توصل من خلال هذه الموازنة إلى جملة من النقاط يمكن أن ندرجها ضمن الأحكام النقدية المتطورة، ونذكر على سبيل المثال ما يلي:

- توجيه نقد من غير تعليل، واعتماده على النقد الذاتي المحض.
- كان مثله الأعلى في الشعر هو القصيدة القديمة.
- كان ينتقد نقدا لغويا، حيث يناقش معاني بعض الكلمات ويبين الخطأ في استعمالها.
- يرى أن يؤاخذ الشاعر على أخذ المعنى ويعد ذلك سرقة أدبية، لاسيما إذا كان السابق أصحّ معنى من اللاحق، ويبدي مرونة ويسرا في غريب المعاني.
- يستهجن الحشو في البيت الشعري، بحيث يكثر لفظه ويقل معناه، كما لا يستحسن تكرار المعنى الواحد في قصائد مختلفة لشاعر واحد.

إن مفهوم المرصفي للنقد هو بمثابة امتداد لما كانت عليه الحركة النقدية من ازدهار خاصة في القرنين الثالث والرابع الهجريين، لاسيما عند ابن قتيبة وقدامة بن جعفر والآمدي. فالنقد عنده يخرج عن نطاق الذم والقبح القائم على استحسان الأدب المصنوع والتنافس على السجع المكلف واستعمال الحلي البديعية المختلفة.

ثانيا: مفهوم الأدب والأسس النقدية عند المرصفي

1 ـ مفهوم الأدب

ارتبط مفهوم الأدب عند المرصفي ارتباطا وثيقا بالتطور التاريخي اللغوي، فهو بذلك (لا يرى الأدب على أنه مفهوم جمالي لغوي فحسب، ولكنه شيء يؤثر في سلوك الأفراد ويدفعهم إلى العادات الحميدة ويطور حياتهم)[23]. وهو بذلك يرى أن الأدب هو (معرفة الأحوال التي يكون الإنسان المتخلق بها محبوبا عند أولي الألباب)[24].

يرى المرصفي أن الأدب هو الطريقة المثلى للوصول بالإنسان إلى منزلة محبة الناس، لكن شريطة التمكن من استعمال الألفاظ في مناسباتها الصحيحة، وذلك بوضع القول في موضعه المناسب، فهو بذلك يرى بـ(أن لكل قول موضعا يخصّه بحيث يكون وضع غيره خروجا من الأدب)[25].

من خلال ما تمت الإشارة إليه، يمكن القول بأن مفهوم الأدب عند الشيخ المرصفي ليس مفهوما أخلاقيا قاصرا، ولكنه مفهوم في ترابط عميق بالحياة الإنسانية، فهو يدرك إدراكا واضحا أثر الاختلاط الحضاري بين الناس وانعكاس الاحتكاك والمعارف على السلوك والأخلاق. فالأدب هو من يحمل صاحبه على فعل الخير والتحلي بالأخلاق الحميدة وتطهير سلوكه من الشر والأمور السلبية.

2 ـ الأسس النقدية:

سنحاول في هذا المحور أن نقف عند الأسس النقدية في كتاب الوسيلة الأدبية للشيخ المرصفي، ونجملها في ثلاثة أسس نقدية، هي:

أـ عمود الشعر

يعد المقياس العام للشعر عند المرصفي ما أورده ابن خلدون في مقدمته بقوله: (صحة المعنى وشرفه، وتخير اللفظ بخلوه من التنافر والغرابة، وبمناسبة لموضوعه، وجودة التركيب بسلامته من

الغموض والحشو، وبمتانة السياق، وحسن الاستعارة ولطف الإشارة وغرابة النادرة، والبعد عن الزخرفة بالمحسنات وعدم القصد للنكات)[26]. فقد اتفق المرصفي مع رأي ابن خلدون في هذا المقياس الذي جعله شرطا لجودة الشعر وقوته، وهو ما يؤكد على تمسك المرصفي بالقديم والرجوع بالشعر العربي إلى بساطته وسهولته.

ب ـ طبقات الشعراء

يشترط المرصفي حفظ الكثير من الشعر لمعرفة صناعته، حيث ذكر أشعار المشاهير من الشعراء، ووضع كل شاعر في قالب خاص ويعني به الطبقات، يقول: (وإن قد عرفت أن لا سبيل لمعرفة الصناعة إلا بكثرة الحفظ ورعاية ما نبهناك على رعايته، فقد آن أن نورد لك ما يكون مثلا لما ينبغي تحصيله للحفظ وترديد النظر فيه، من قصائد المشاهير وينبغي بحسب نشأة الشعر وما عرض له من التفسير أن نجعل الشعراء في ثلاث طبقات، الطبقة الأولى: للعرب جاهليين وإسلاميين من المهلهل إلى بشار بن برد، والطبقة الثانية: للمحدثين الذين كانوا يحرصون على موافقة العرب ويجتهدون في سلوك طرائقهم، من أبي نواس إلى ما قبل عبد الرحيم المعروف بالقاضي الفاضل، والطبقة الثالثة: للشعراء الذين غلب عليهم استعمال النكات والإفراط في مراعاة البديع وهم من القاضي الفاضل إلى هذا الوقت)[27].

ج ـ الموازنات

سلك المرصفي منهج النقاد القدامى أمثال الآمدي والجرجاني، ولكنه اشترط أن تكون بين شاعرين ينتميان إلى طبقة واحدة، يقول: (وإنما يوازن بين شعر البحتري شعر شاعر من طبقته وأهل عصره ومن مضماره، وفي منزلته، ومعرفة أجناس الكلام والوقوف على أسراره والوقوف على مقداره شيء وإن كان غزيرا وأمر وإن كان بعيدا، فهو سهل على أهله، مستجيب لأصحابه، مطيع لأربابه، ينتقدون الحروف ويصرفون الصروف)[28].

فالمرصفي يرى أن الشرط الأساس لقيام الموازنة بين شاعرين هو الانتماء الواحد إلى الطبقة نفسها وإلى العصر نفسه، فلا يمكن أن نتحدث عن موازنة شعرية خارجة عن هذا الشرط.

خاتمة

تأسيسا على ما تم عرضه، نخلص إلى أن الشيخ المرصفي حاول تذكير القارئ العربي بهويته النقدية، وذلك ببعث البلاغة العربية بعلومها الثلاثة (البيان، والمعاني، والبديع). كما أعاد إحياء النقد العربي القديم في حلة جديدة. ويبقى كتابه "الوسيلة الأدبية" محاولة جادة للتعريف بالأدب القديم ومحاولة بعثه من جديد ليشكل بذلك دعامة أساسية لكل الأدباء والنقاد في إرساء قواعد واضحة للحركة النقدية في العصر الحديث.

الهوامش

1. محمد تيمور: اتجاهات الأدب العربي في السنين مائة الأخيرة، مكتبة الآداب الطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1970، ص: 17 ـ 18.

2ـ حسين المرصفي: الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية، الجزء الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991، ص: 18.

3ـ أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر ، دار الكتب العلمية، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم، ص: 09.

4ـ الوسيلة الأدبية، ص: 19.

5ـ نفسه، ص: 44.

6ـ نفسه، ص: 40.

7ـ نفسه، ص: 48.

8ـ نفسه، ص: 48.

9ـ نفسه، ص: 48.

10ـ نفسه، ص: 50.

11ـ نفسه، ص: 50.

12ـ نفسه، ص: 59.

13ـ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 48.

14ـ الوسيلة الأدبية، ص: 51.

15 ـ نفسه، ص: 51.

16ـ نفسه، ص: 51.

17ـ نفسه، ص: 429.

18ـ نفسه، ص: 429.

19ـ اتجاهات الأدب العربي في السنين مائة الأخيرة، ص: 17 ـ 18.

20ـ عبد الرحمان بن محمد بن خلدون: مقدمة بن خلدون، تحقيق عبد الله بن محمد الدرويش، دار يعرب، 2004، ص: 573.

21ـ نفسه، ص: 562.

22ـ الوسيلة الأدبية، ص: 473.

23ـ نفسه، ص: 06.

24ـ نفسه، ص: 7.6.

25ـ نفسه، ص: 37.

26ـ نفسه، ج 2، ص: 429.

27ـ نفسه، ص: 503.

28ـ نفسه، ص: 558.

المراجع

1) محمد تيمور: اتجاهات الأدب العربي في السنين المائة الأخيرة، مكتبة الآداب للطباعة والنشر، ط 1، 1970.

2) حسين المرصفي: الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية، ج 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991.

3) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، 2011.

4) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1419هـ.

5) عبد الرحمان بن محمد بن خلدون: مقدمة بن خلدون، تحقيق عبد الله بن محمد الدرويش، دار يعرب، 2004.